ايها الاخوان لقد ائتمنّا على حقائق العالم الطبيعي كما كشفها العلم الطبيعي فلنكن امناء على ما ائتمنّا عليهِ

الدين الحق اصولهُ راسخة في اعماق النفس وفي حقائق الاشياء ولا عجب اذا لم تصل اليهِ باساليبنا العلمية لان اعمال الله كلية شاملة غير محصورة ولا مقيدة ونحن لا تصل اساليبنا العلمية الاَّ الى معرفة الجزئيات فلا ندرك الاشياء الاَّ اذا رأينا فيها تغيراً او تولداً او انفصالاً . ونحن صمٌّ عمي عن كل عظمة ذاتية ما لم تقوَ بصيرتنا حتى نرى في ثوب الوجود الخارج من ثول الابدية حلَّة الله سرمدي سائرة نحو الكمال

المرأة والعمل

لا شيءَ أدعى الى حيرة المتأمل في نظام هذا الاجتماع من جمعهِ بين طرفي الافراط والتفريط من ضروب المتناقضات . فمن نظر الى حال المرأة في نظام هذه المدنية الحديثة لا يسرُّهُ من ارتقائها امر حق تبكيهِ من انحطاطها امورٌ كأن ناموس رد الفعل في شأنها آخذ مأخذهُ على اقوى تأثير واشد ظهور . فانها ما كادت تنشط من عقال ذلك الذل القديم والاستعباد الذميم وتنشق نسيم الحرية في رياض الامال حتى اعادتها الحضارة الاوربية الى مظالم من القسوة والغلظة تعبث بكرامتها المعنوية وتفسد هيكلها الملكي اللطيف افساداً لا بُدَّ ان يُفضي دوامهُ الى انحطاط النوع البشري بينما هو يبغي الارتقاء

والعقلاء في تعليل هذه العواقب الوخيمة فريقان . الاول يذهب الى ان غلوَّ المرأة العصرية في مطالب مساواة الرجل وانبعاثها في طرق الترف والتزين هما علَّة هذا الشقاء فهي الجانية على نفسها ذلَّ الطمع ومذلَّة الاشراف . فلو انها رضيت بما قُسِمَ لها من الحظ الطبيعي تحرص على الزرع والضرع وتقوم على تربية النسل وتدبير المنزل بعد احراز النصيب الكافي من العلم والتهذيب لدامت لها النعم وكُفيت شرَّ هذه النقم . والآخر يقول ان اللوم كلهُ واقع على هذه المدنية الجائرة . فبعد ان اصبح العيش فيها حياة زحام وسباق اضطرت نساء الاوساط والعمال الى معاونة رجالهنَّ في تحصيل اسباب المعاش عملاً بالتضامن وحفظاً للبقاء . هذا اذا لم نقُلْ ان الرجل لما رآها تجاوزت حد المعقول في طلب المساواة لهُ كاد لها كيد هذا التعاون في العمل المضني لقواها كأنهُ يقول اذا لم تقنعي بحقك الطبيعي فذوقي ثمرة الطماعة . ومن لم يرضَ بحقهِ اضاعهُ

ومهما يكن من تحقيق هذا التعليل فان الواقع من مشاركة نساء العصر للرجل في ضروب الاعمال البدنية خارج المنزل واقامتها صحابة النهار في المصانع والحوانيت قد ظهرت اليوم لاهل النظر والانصاف مضارُّ وبيلة الجسمة ظهوراً محسوساً من ضعف بنية المرأة ونقص المواليد ونغص العيش واختلال شؤون البيت كلو على ما يأتي بيانهُ

هذا وان الذاكرين من القرَّاء يذكرون ان اكثر ما دار الى الساعة في جرائدنا من المناقشات في شأن المرأة ومساواتها للرجل وتعيين مقامها الطبيعي كان مبنيًّا على جدَل كلامي لا يتعدَّى حدود النظريات مما لم يتهِ الى حكم جازم ولا أدَّى الى كبير امر

واما اليوم فلم يَعُدْ للنظريات المجرَّدة ما للادلة الطبيعية اليقينية من الحكم القاطع والقول الفاصل في بيان الادواء الاجتماعية ووصف ادويتها نهض المفكرون من نطس الاطبَّاء وتجرَّدوا للبحث في اضرار اشتغال المرأة في المعمل ومسابقة الفتاة للفتى في التعليم العالي المدرسيّ واخذوا في نشر نتائج احكامهم الطبية في الاسفار الخاصَّة والصحف العلمية السيَّارة ناعين الثاني على نظام هذا الاجتماع مستغرِبين ارباب الانسانية والاريحية من قادة الامم الى درء هاتين المفسدتين الاجتماعيتين داعين الى ارجاع ذلك الملاك الانساني الى مقامهِ الطبيعي (وحسبهم ان يقولوا « الطبيعي ») ضنًّا بهذه المدنية ان تتراجع الى شرّ من الوحشية والعياذُ بالله . وهاك محصَّل ما وقفنا عليهِ من بيان تلك الاضرار مبتدئين هذه المرَّة بالقسم الاول منها على ان نعقبهُ بالثاني باذن المعين فنقول

(اولاً) . اضرار وقوف المرأة الطويل في المعمل

لما كان مستقرّ عظام الكعب والقدم في المرأة على الخصوص يمتنع معهُ حمل الاثقال الباهظة وكانت ركبتها تشريحيًّا ليست مساويةً لركبة الرجل من حيث احتمالها للضغط العمودي وكانت عضلات ساقها اضعف قوةً منها في ساق الرجل كانت فيها نسبة البعد بين الجذع والطرفين اقلَّ منها في الرجل جريًا على ناموس المخل — اي كلما طال مدى الساعد عن الثقل ازداد قوةً على حمل الثقل وبالعكس — فلذلك تتحوَّل قوة حمل الساعين الى الظهر . وعليهِ فكلُّ عملٍ يدعو المرأة الى اطالة الوقوف مؤذٍ لها اذ ان ضغط جميع الثقل الذي تحملهُ يصرف الى قسم من بدنها حيث تزدحم الاجهزة الحيوية فتشعر بتعبير حول عظم الفخذ من حمل تلك الاثقال فيورثها ذلك احتقاناً في جميع الاعضاء المحيطة بهِ . لان عادة الوقوف والوقوف على قدم واحدة يضيِّق دائرة العظم الفخذي . واكثر ما يحصل هذا التضييق للواتي لم تكن اعضاؤهنَّ الفيزيولوجية قد تكاملت واشتدَّت قبل

دخولهنّ المعامل . فانهُ قد عُلِم بالاحصاء ان متوسط اعمارهنّ يتراوح بين السادسة عشرة والعشرين وهو في الرجال العمّال بين الخامسة والعشرين والثلاثين

اما انحطاط بدن الفتاة الى هذا الحدّ فلا تظهر آثارهُ في غالب الامر الاّ بعد خروجها من المعمل وتزوجها . واما المتزوّجات فانهنّ يلبثنَ في المعامل على حال الوقوف الآنف الذكر الى ما قُبيل الولادة بساعات قليلة . ولما كانت حوادث الاسقاط في نساء المعامل اكثر منها في غيرهنّ وكثيراً ما يتعسر لهنّ المخاض فيلجأن الى استعمال الآلات وفي تلك الولادة من الويلات ما فيها

ولا تقتصر اضرار هذا الوقوف على نساء المعامل بل انها تشمل ايضاً المستخدمات في حوانيت التجارة . فان هؤلاء وان سمح لهنّ عُرفاً بالجلوس تقضي عليهنّ حال الصنعة باطالة زمن الوقوف حول المناضد في فسحة ضيقة المجال فتزداد بذلك اثقال رفع السلع وانزالها على حوض البدن فتُنيبهِ . دع عنك ما يلحق بنتائج طول الوقوف من التأثير بشكل قوس القدم وتضخم الاوعية الدموية في الساق مما يؤدي الى مطال الاعصاب ولحاق الاذى بوظائف أخر نسائية

(ثانياً) . اضرار الجلوس في مقرّ واحد

قد لا نقلّ اضرار هذا الجلوس عن اضرار ذاك الوقوف . فان قلّة الحركة البدنية تضعف قوّة الرئتين فيقلّ بذلك افراز السموم من البدن على ما هو معلوم . ولما كانت الكليتان مضطرتين الى العمل نيابةً عن الرئتين في هذه الحالة تزداد عليها اعباء هذه الوظيفة فوق الاحتمال فيتصل الضرر بما في الاحشاء من الاعضاء

ثم ان اطالة الجلوس تورث قبض الامعاء او تزيدهُ . والقبض وان كان في ظاهر الامر من العلل اليسيرة قد يُفضي الى أدواء وعلل خطيرة الشأن مما لا يتأتى عن غير القبض من الاسباب . وفوق ذلك فان من مساوئ المعامل في هذا الباب انها في غالب الاحوال لا تسهل للعاملات امر الخروج او ترك العمل لقلة عدد المرافق الكافية او لشقة الاستئذان من نظار الاعمال من الرجال فيزداد امر القبض ضغثاً على ابّالة

وقد اطال الباحثون الكلام في هذا الباب فاجملناهُ بقولنا ان هذا الضرر الاخير ينتهي بعاملات المعامل الى فلج القناة الهضمية والاخلال بوظيفة الافراز مما يشمل اذاهُ سائر البدن حتى يتأتى عنهُ علل الهستيريا وتوقف الوظائف الجنسية الى فقر الدم العام . ثم اضافوا الى اذى هذا الجلوس الطويل الزمن الضغط اللاحق باعضاء الجوف من الاكباب على آلات الخياطة او المكتب مما يمهّد السبيل الى انواع من الالتهابات المزمنة في الحوض

وجملة القول ان طول الوقوف او الجلوس على حالة واحدة إما ان يُورث العقم المطلق او يعرّض الولادة لاخطار وبيلة العواقب

(ثالثاً) . وحدة العمل الداعية الى السأم وازهاق النفس

من شؤون الصناعة الحديثة في المعامل انهم يعينون لكل عامل عملاً خاصًّا لا يتعداهُ الى غيرهِ . فيستمرُّ عليهِ الى ما شاء الله فيبقى كذلك على سقم الاستمرار . قالوا ان وحدة العمل وان شقَّ علينا تعيينَ اذاها رأساً بقوى البدن الحيوية هي من متعلقات القوى العقلية اكثر منها بالاولى . فان العمل في المعامل الحديثة ليس فيهِ حظٌّ من اللذة الفكرية والانشراح للصدر ولا يوجب الاهتمام بالمسأولية مما يستدعي اعمال الذهن من جانب العامل . فالعاملات يمكثن الامد الطويل على عمل واحد اكثرهُ نتاج الآلات الجامدة . وظاهرٌ ان كل عملٍ لا يدعو الى اعمال الفكر يتعب العقل اكثر من عملٍ يطلب فرط الفكر . فاذا اشتغل مركز واحدٌ فقط من مراكز الدماغ اتعبهُ اكثر مما لو شُغلت مراكزهُ كلها . وهذه الحالة إما ان تورث العقل الكلال او تلهب فيهِ شوقاً الى الهيجات[1]

ولا يخفى ان شدَّة الارتباط بين الجهاز العصبي وسائر الوظائف البدنية تقضي بان اضرار المراكز الدماغية تنعكس الى جميع تلك الوظائف . فكلال الدماغ واعياء البدن متلازمان ابداً . ومن المشهور ان كل عضلةٍ تنقبض تتناول قدراً معلوماً من النيتروجين وتفرز سمًّا يقابلهُ . وفي الحال الصحية يفرز هذا السم بواسطة الكليتين والرئتين ويعوض عنهُ بمضادٍّ لهُ . فاذا اجهدت العضلات بعملها فوق الحدّ الضروري تراكم السم فيها فاعجلها عن افرازهِ وتأتى عن هذا التراكم إتعابها . ولما كان العدد الوافر من العاملات يؤجَرْنَ على عدد القطع المصنوعة كما في الخيَّاطات وناسجات الجوارب والاقمشة ازددن رغبةً في سرعة العمل طلباً لمزيد الاجرة فاجهدن عضلاتهنَّ سرعة واعياء فيزداد اجتماع السموم فيها حتى تكلَّ فراهن العصبية وهنَّ لا يدرين ان السمَّ في ذاك الدسم اذ كثيراً ما يؤدي بهنَّ التسمم الذاتي الى الموت الزؤام

والذي ينزل بدن العاملة من سموم العمل فوق ذاك التسمم الخلقي ما تنشقهُ من متصعّدات بعض المعادن كرائحة الرصاص المؤدية الى اذى المولود والمركبات الكيمية مما يدخلهُ

(١) يظهر ان هذا هو السبب الطبيعي لكآبة طبقات العمال في بلاد الغرب على انواع المسكرات . ويؤيدهُ ما نعلمهُ من حال فريق من صناع الشرق المعروفين (بصناع النول) . فانك قلَّ ان تجد منهم من لا مهانة على المسكر في بعض نهارهِ او اسبوعهِ

عنصر الكبريت . اضف الى ذلك ما يلحق اليد من نمل الحوامض ومواد القصر والتبييض الموصلة الاضرار الى العصب ايضاً . وكذلك الغبار الضار في المعمل فانهُ يؤدي الى جفاف الحلق فيضطر به السعال ويجم عنهُ ضيق التنفس الى التهابات في الصدر كثيراً ما تكون منشأ لوبالة التدرُّن فضلاً عما تفضي اليهِ رطوبة المعمل وحرارتهُ من توهين القوى بفرط العرق مما يعدُّ الجسم الى داء المفاصل والتهاب الشعب الرئوية والتدرُّن نفسهِ الى غير ذلك من حلقات هذه السلسلة العديدة العلل والادواء

ومما يزيد الطين بلة في شأن موعنات نساء المعامل انهنَّ قلما ينلنَ قسطهنَّ الضروريَّ من نوم الليل المريح . وبديهيٌّ ان البدن يفضل هذا النوم يفرز السموم المتراكمة فيهِ مدى النهار فيهبُّ العامل في صباحهِ نشيطاً الى عملهِ على رغبةٍ واقبال . والاَّ فاذا لم تنلِ العضلات حظها من راحة النوم عجزت في النهار التالي عن العمل المعتاد ولم تأتِ منهُ بالقدر المطلوب . وهكذا على توالي الايام يُدرك جهازها العصبيَّ الوهن والانحطاط مما يكون قد حلَّ بمراكز دماغها المسيطرة على العضلات من الاعياء المرضي والكلال المضني وان لم تشعر بذلك في بادىء الامر . ولما كانت المرأة اكثر عرضةً من الرجل للمزعجات العصبية كان الاخلال في وظائفها الجنسية مؤدياً الى توهين اعصابها لا محالة ثم زاد وهنُ العصب ضعفَ البدن بناموس الارتباط المتلازم الماثر الذكر بين الفريقين

اما قلة نوم اولئك العاملات فقد يكون سببهُ اقبالهنَّ على ملاهي الليل في المراقص ومشاهد التمثيل تنفيساً لضيق الصدر وملالٍ تنتزيه الفكر على ما اشرنا اليهِ فيعتدن الأرق ويتبعهُ فقد شهوة الطعام الى ان يتفاقم خطب التعب العصبي وينتهي امر الخلايا الدماغية والعصبية بتمام الهبوط الذريع فيجرُّ معهُ تشويش الوظيفة الجنسية وفقر الدم وهناك محطُّ البلاء ومنتهى الشقاء

ويلحق بذلك كلهِ من اذى العمل العصبيِّ دوام حركة الادوات والآلات ولاسيما بعد توفُّر هاتيك الاضرار السالفة البيان . فان هذه الحركة المرافقة للاصوات المزعجة تؤثر في الاعصاب تأثير النقر الخفيف المستمرِّ على الفولاذ . قالت احدى ضحايا المعامل مرةً انها حين تقف آلتها ليلاً تشعر كأن دويَّها او صياحها قائماً باذنيها دليلاً على ما نال عصبها من الاذى مدى شغل النهار

(رابعاً) . اضرار سوء التغذية لنساء المعمل

ان سوء التغذية يضعف قوة العاملة الحيوية . ذلك ان الأم المستخدمة في المعمل يضيق

بها الوقت عن اعداد الطعام على حالٍ صالحةٍ للعائلة من حسن الطبخ وكفاءة التغذية . فتصبح من تخافة الطعام خائرة القوى فاترة الهمة والنشاط في تحمل اعباء عمل النهار وتدبير شؤون البيت جميعاً . واذا فُرض ان احدى اولئك العاملات الباسلات قويت بفضل البنية الفطرية على عبء الحمل والمخاض والولادة لم يعد في مدخور قوتها غذاء كافٍ لمولودها خصوصاً وان الطفل يقتضي ان يرضع مرةً في الساعتين على حين لا يسمح لامهِ ان تراهُ الا مرةً في كل ست ساعات او عشر . ومن عادة امثال هذه الأم وهي مقيدة باغلال العمل ان يستعضن عن ارضاع الطفل اللبن الطبيعي (وهو لم يتجاوز الاسبوعين من عمره) بمغذيات من العقاقير او المواد المستحضرة الماء له وتسكيناً لألم جوعهِ . ومعلومٌ ما للاخلال بقانون الرضاعة من الآفات المهلكات الشاملة للولد والوالدة كليهما حتى اذا ما قدّر لمثل هذا الطفل اجتياز طور هذا البلاء نشأ واهن القوى . ومتى حان وقت دخولهِ العمل ايضاً لم يكن فيهِ من مُدخر القوة والعزم مايقوى بهِ على العمل بل كان اكثر استعداداً لما سبق من عاتيك العلل والادواء ولاسيما اذا كان انثى . ومن مزيدات الاسف ان نقول ان سوء التغذية مع ما مرَّ من مزعجات الاعضاء الجنسية من القوى طال العقم الاليمة

وجملة ما يُقال في باب اخلاف النسل انهُ لما كان يطلب وقتاً وعناية لا تأذن بهما قيود العمل كانت طائفة كبيرة من العاملات زاهدةً في النسل او عاجزةً عنهُ . وقد يتعذّر في كثير من الاحوال تحقيق شؤونهن المتعلقة بامكان حصولهِ او الاعراض عنهُ . ولذلك كانت سائر الاسباب الاجتماعية والاقتصادية المقلّلة النسل (على ما جاء في مقتطف تموز لهذه السنة) اشد تأثيراً في نساء المعامل فازداد الخطب وبالاً

قال الطبيب معتمدنا في اصول هذه المقالة « لو تجرأ احد منذ ١٥٠ سنة على ان يتنبأ بانهُ سيسمح للنساء بالاشتغال في المناجم والحانات وآلات الخراطة وصقل المعادن والجري على الاقدام جري البريد والسعاة لما قابلهُ اهل تلك الايام بسوى الهزء والضحك . فاذا عسى اولئك السلف ان يقولوا لو شاهدوا اليوم المرأة ترزح تحت اثقال هذه المشاغل المتنوعة على ما وصفنا ؟ . بل ألا يقول احفادنا — بعد ان تصبح هذه المساوىء سبقاً خبر كان — ان عصرنا هذا من عصور الوحشية والهمجية ؟ » الى ان قال . ولعلَّ ولاة الاحكام يضعون يوماً ما حدّاً لهذه المظالم الاجتماعية بحكم القانون حرصاً على مستقبل الجنس ولكنهُ لا يجوز للامة الصبر على الضرّ والشرّ الى ان تأذن الايام باستحسان الحكّام » ثم قال في الختام « حتى ان المشتغلات في المدارس والمكاتب والمتجرات مهضومات الحقوق الجنسية

فينبغي ان يتصفن فيها انصافاً يعود نفعهُ على مجموع الامة . والاَّ فان هاتيك المضار واقعة على قلة النسل وضعفهِ فيؤول شأن الامة الى الاضمحلال لا محال »

هذا ولعلَّ بعض الناظرين في هذا الشأن الخطير يقول اذن لا ندري ايّ الامرين احق بالعجب والاستغراب اتعريض ام المدنية الراقية مربية الجنس لمثل هذا الوبال في عصر الحرية والنور وهي التي تدعي بقيام مدنيتها على رقيّ المرأة ؟ ام قدام اهل البحث والعلم على تشهير هذه الحال تقبيحاً وتعنيفاً للأمة باسرها حتى يعذروا السماح بها همجية مطلقة ؟ . فلنا ليس في الامرين من عجب لدى المتبصّرين . اما اولاً فلان نواميس الاجتماع في الامم الدستورية جارية بمجراها الطبيعي الى ان تبلغ غايتها من التفريط والافراط . وحينئذٍ فمتى ظهرت آثارها الى الحدّ الذي يقتنع فيها سواد الامة بتلك المضار ثاب اهل الضلال الى رشادهم وعادوا الى محجّة الصواب . والاَّ فلا قوّة من التشريع تدفع ولا هزّ الكلام للهواء ينفع . ولنا كل يوم من شؤون اجتماعنا الشرقيّ على ذلك اسطع دليل . يظهر من احوال بعض نسائنا احياناً ما يخالف حقوق الطبع والشرع فينهض بعض اهل الغيرة والحمية الى عقد الهجان وابرام العهود على منعها بسطوة الزعامة وصولة الامامة والاستعانة بالحكام . ولكنك بعد قليل لا ترى هاتيك الصيحات الاَّ صرخات في واد او نفخات في رماد اذ لا يكون الاختيار الذاتيّ في مجموع الامة قد بلغ مبلغهُ من حق الاقتناع لردم الى النهج القويم . واما ثانياً . فان اهل العلم الصحيح في امم الغرب قد اعتادوا حرية الفكر ومقاومة التيار العام متى اتضح لهم نور الحق في اي الشؤون الانسانية او القومية ودفعهم الوجدان الى التصريح فعندهم نسبة الضلال الى الامة ثم الاقلاع عنهُ خيرٌ من الرضى بهِ والتمادي بالباطل المفضي الى الدمار

اما شأننا نحن الشرقيين في موضوع (المرأة والعمل) فهو مؤلف للتشاؤم والاعتبار من امر الاستقبال . فإمّا ان نقتصر من رقيّ نسائنا على ما ينير البصيرة ويجلو الارهام ويقف بهنَّ عند مقامهنَّ الطبيعي في الامامة والزوجية والمنزليات ومعاونة الرجل في ما لا يخرج بهنَّ عن التركيب الفطري المحدود فنكون قد وقفنا عند الحدّ الذي عينتهُ حكمة الحكيم الاعلى قبلنا من تهذيب المرأة وحريتها الحقَّة الفضل نصيب . وإما ان يكون ناموس التقليد والمتابعة فاعلاً في المرأة الشرقية فعلهُ حتى يبلغ بها ذاك المصير والشرق آدابهُ ومشاربهُ فبشّرنا بشقاء يذهب فيهِ من منازلنا هناء العيش العائلي الذي الفتهُ طباعنا ولم يبقِ لنا الدهر سواهُ من هناء

دمشق مترجي تنذلت